

## الأقليات في العراق: الضحية الأخرى(\*)

### مختار لاماني

باحث زائر في مركز الدولة لتجديد الحكم - كندا.

#### مقدمة

١ - إلى حين استقالتي في كانون الثاني/يناير ٢٠٠٧ من منصبي كسفير لجامعة الدول العربية وموفد خاص إلى العراق، لاحظت أن جميع العراقيين من مختلف المنابت الإثنية والدينية والطائفية لم يكونوا يعانون فحسب، بل كانوا أيضاً ضحايا انهيار أسس مجتمعاتهم المتجذرة في تراث بلاد ما بين النهرين. والأزمة العراقية تغدو مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى آلاف من البشر؛ وهي أيضاً تهديد لجزء حساس من التاريخ والحضارة الإنسانيين.

يهدف هذا التقرير بشأن الأقليات، لا إلى زيادة الشعب العراقي انقساماً، وإنما إلى إنهاء معاناته، التي يتحملها الجميع، وإن بصور مختلفة.

٢ - إن مصطلح الأقليات يشير، حيثما يجري استخدامه في هذا التقرير، إلى المجموعات الإثنية والدينية الاثنتي عشرة المستقلة عمّا أسسته قوات الاحتلال كتقسيم شاذ (شيعة، سنة، أكراد). وقد شدد هذا النظام السياسي المستند إلى حصص إثنية ودينية على نقاط ضعف الأقليات الأخرى إزاء الأخطار المحدقة منذ ذلك الحين.

٣ - واضح أن هذا التقرير لا يمكن اعتباره تقريراً نهائياً؛ فتطور الوضع على الأرض في العراق، ومضامينه بالنسبة إلى جميع العراقيين، سريع جداً ومتناقض جداً، بحيث يجب أن يبقى هذا التقرير مفتوحاً أمام كل ما من شأنه أن يُدخل عليه معطيات وتصحيحات وأحكاماً جديدة في المستقبل. وغرضنا هو تقديم صورة دقيقة بقدر الإمكان لتحديث استنتاجاتنا مع استمرار الوضع في التطور، ولتخمين اتجاه الأحداث. كما إننا نقدم مقترحات من أجل العمل

(\*) نشر هذا التقرير بالإنكليزية تحت عنوان: Mokhtar Lamani, «Minorities in Iraq: The Other Victims», Centre for International Governance Innovation (CIGI), Special Report (January 2009), < <http://www.cigionline.org/sites/default/files/Minorities%20in%20Iraq%20final.pdf> > .

للتخفيف من حدة الظروف التي تجد الأقليات نفسها فيها، وهي ظروف قاسية جداً.

٤ - بلاد ما بين النهرين هي موقع نشأة عشرات الإثنيات والأديان وموئلها منذ آلاف السنين؛ هذه الإثنيات والأديان التي شكلت معاً فسيفساء ثقافية ودينية واجتماعية دقيقة وجميلة، أضحت لاحقاً جزءاً مهماً من هوية دولة العراق الحديثة. وعلى مدى آلاف السنين، وفي ظل عدد لا يحصى من أنظمة الحكم، وعبر صراعات متوالية، استمرت مجموعات الأقليات هذه وازدهرت فسيفساء العراق.

٥ - إن العنف الطائفي الجاري وعجز القيادة العراقية الراهنة عن تحقيق مصالح وطنية ومناخ اجتماعي آمن يهددان بتدمير الفسيفساء التي صمدت على مدى هذا الزمن؛ فالأقليات العراقية تواجه مستوى غير متكافئ من العنف والاضطراب، اللذين يهددان بإكراهها على الرحيل والبقاء خارج العراق بصورة دائمة. ومع أن الأقليات تشكل ٥ بالمئة فقط من مجموع السكان، فإنها تؤلف أكثر من ٢٠ بالمئة من السكان المهجرين<sup>(١)</sup>.

٦ - إن مسألة الأقليات هي دائماً قضية حساسة جداً في الشرق الأوسط. وقد كان مشروعا الأصلي إجراء بحث ميداني بشأن الأقليات العراقية في العراق والأردن وسورية ومصر في تشرين الثاني/نوفمبر وكانون الأول/ديسمبر ٢٠٠٨. لسوء الحظ لم يتسنّ لنا أن نكمل سورية، فقد أبلغت أن هذه المهمة المحددة لم تكن موضع ترحيب حينذاك، ولم يستطع مساعدي الكندي الحصول على تأشيرة دخول. وتمكنا من أن نلتقي قادة وأفراداً آخرين في العراق والأردن ومصر.

٧ - يضم الشرق الأوسط عدداً كبيراً من مختلف الأقليات الدينية والإثنية والقبلية، التي تعايشت كلها على مر التاريخ وحافظت على هوياتها وتقاليدها الغنية طوال قرون من الزمن. وعلى الرغم من مساهماتها الثقافية والفكرية الضخمة في تنوع ورخاء المجتمعات التي أقاموا فيها، فإن مجموعات الأقليات هي اليوم مركز الكثير من الصراعات المعاصرة في الشرق الأوسط؛ فكثير من الأقليات الشرقية الأوسطية تواجه مواقف عدائية متصاعدة من طرف جماعات متطرفة وحتى من طرف هيئات حكومية. ومن سخریات الأمور أن جماعات تشكل أغلبية مادية في بلدانها يمكن، لها، أحياناً أن تكون أقلية سياسية في حكوماتها وتواجه ضغوطاً مماثلة للضغوط التي تمارس على الأقليات.

٨ - إننا لم نر حتى الآن دستوراً يقوم على المواطنة المتساوية ويجري تنفيذه في المنطقة كلها؛ فمواطنو معظم بلدان الشرق الأوسط يطلب منهم، مثلاً، ذكر انتمائهم الإثني أو انتمائهم الديني، أو كليهما، على بطاقات هوياتهم أو على أوراق رسمية. وفي بعض الحالات يُرغمون حتى على الإشارة إلى انتماء لا يعبر عن الحقيقة لأن حكوماتهم لا تعترف بجماعتهم الدينية أو الإثنية.

٩ - نحن اخترنا التركيز على الحالة العراقية ليس فقط لأنها مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى مئات آلاف الأشخاص، بل لأن الأزمة في العراق تهدد أيضاً جزءاً حساساً من التاريخ والحضارة الإنسانيين.

١٠ - لقد بلور العراق توترات جيوسياسية وجيوستراتيجية شديدة، تميزها ثلاث طبقات من التعقيد:

- الأولى هي اتضاح الأزمة السياسية - الاجتماعية العراقية الداخلية ومختلف جوانبها؛

- الثانية هي، في جوهرها، طبيعة البعد الإقليمي البالغة التعقيد وتفاعله مع الأوجه الداخلية للأزمة في العراق؛

- الثالثة هي التفاعلات الدولية الملازمة لموقع العراق في المنطقة، والمضاعفة بأهميته بالنسبة إلى الاقتصاد الدولي بسبب موارده النفطية وموقعه في الشرق الأوسط.

١١ - تقع هذه التوترات الجيوسياسية والجيوستراتيجية في صميم التهديدات التي تواجهها الأقليات. إنها (أي الأقليات) مخالب تستغلها الأطراف كلها على رقعة الشطرنج التي هي العراق الجديد. وقلما تلقى حاجاتها الحقيقية اهتماماً، هذا إذا كان هناك من اهتمام، بل إن معاناتها محط استغلال لتحسين أجندات أخرى.

١٢ - لأن كان هناك في أي وقت مضى ضرورة لتفكير دينامي جديد لمواجهة تحديات الحكم في العراق، فهذا أوانها. فبدق ناقوس الخطر للتحذير من محنة أقليات العراق الباعثة على اليأس، يؤمل بأن يستطيع هذا المشروع بدء التحفيز على حوار جدي ملح يقدر على تعجيل إحداث تغيير إيجابي وتأمين حماية من أجل أقليات العراق العديدة المهددة بالخطر.

## البحث الميداني

١٣ - يركز هذا التقرير الأول على مجموعات الأقليات التي تقيم في كردستان العراق أو التي لجأت إليها. وكان صعود الطائفية في أنحاء أخرى من البلد قد اختزل المجتمعات التي كانت مختلطة سابقاً إلى مناطق محصورة شيعية وأخرى سنية. ولم تستطع كثير من الأقليات الدينية إيجاد حماية في أي من تلك المناطق فحاولت، نتيجة لذلك، إما الفرار من البلد وإما الانتقال إلى الشمال، قاصدة كردستان العراق حيث الهوية الدينية عامل يعتد به بدرجة أقل من الناحية الأمنية.

١٤ - أمضينا خمسة أيام في كردستان العراق، حيث سهّل رئيس الوزراء البارزاني زيارتنا ووفر لنا الأمن والدعم اللوجستي. وأبيح لنا الانتقال بحرية والاجتماع إلى أي شخص؛ لم يطلب منا أن يرافقنا مسؤولون إلى تلك الاجتماعات، التي عقد الكثير منها مع أشخاص شردهم العنف المتواصل في طول العراق وعرضه؛ وكان ممن التقينا هم عائلات مندائية فرت إلى أربيل في العام ٢٠٠٦، فضلاً على عائلات مسيحية كانت قد فرت من الموصل إلى أنكاوة خلال استفحال العنف في الموصل للمرة الثانية في العام ٢٠٠٨. كما إننا انتقلنا لزيارة

مجتمعات الأيزيديين في قلعة شيخان ولاليش. وقد تمت لقاءات هناك مع أيزيدي مير (أو أمير الأيزيديين) وبابا شيخ (أو البابا)، وتمت أيضاً زيارة معبدهم المقدس في لاليش.

١٥ - بعد رحلتنا إلى كردستان العراق، أمضينا ثمانية أيام في لقاءات مع ممثلين لأقليات عراقية مهجرة في عمان والقاهرة. والتقينا عدة عائلات عراقية كانت قد أرغمت على مغادرة البلد ووجدت ملجأ لها في الأردن. كما التقينا عدة مسؤولين من الأمم المتحدة، وأعضاء في البرلمان العراقي، وكذلك قادة عراقيين من داخل وخارج العملية السياسية القائمة في العراق.

١٦ - تلقينا خلال إجراء بحثنا كمية كبيرة من المعلومات من عدة مصادر مختلفة، وكان لا بد من التحقق من صحتها على نحو مستقل قبل ضمها إلى هذا التقرير.

## وضع الأقليات الحالي

١٧ - إن جميع العراقيين يكابدون، لكن لحالة الأقليات خصوصيات تجعلها معرضة لتهديد استثنائي. وقد دلت تقديرات على أن الطائفية والتغيرات الأخيرة في المجتمع العراقي كانت سبباً لإكراه ٢٥ إلى ٣٠ بالمئة من السكان على هجر ديارهم، وهم مهجرون إما داخليا وإما خارجياً. لكن في ما يتعلق بالأقليات، فإن نسبة أولئك الذين هُجروا أعلى كثيراً في الواقع؛ فما يزيد على ٨٠ بالمئة من السكان المندائين أُجبروا على الفرار؛ وهُجّر نحو ٦٠ بالمئة من سكان المجموعات المسيحية وغيرها من المجموعات الإثنية أو الدينية<sup>(٢)</sup>.

١٨ - الأقليات العراقية معرضة لخطر الانقراض. وكما صرح خبير بالاديان لنا كنا قد استطلعنا رأيه، فـ «عندما يُخرج مسلم من بيته، يخطط عادة للعودة إليه حالما يهدأ الوضع، وعندما تغادر أقلية مسيحية أو أقلية أخرى، فإنها لا تفكر في العودة أبداً». مما يؤسف له أن الأدلة التي جمعت حتى تاريخه تؤيد هذا الرأي على ما يبدو؛ وقد ذكر تقرير لمفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين في العام ٢٠٠٧ أن أقل من ١ بالمئة من المهجرين تمكنوا من العودة، لكن حتى في هذا العدد الضئيل لم يرد ذكر لشخص واحد من الأقليات<sup>(٣)</sup>.

١٩ - لقد ازداد وضع الأقليات سوءاً نتيجة حرب العراق في العام ٢٠٠٣ والاحتلال الذي تلاها، وهذا يعني أن المشكلات التي تواجهها الأقليات، لا في العراق فحسب بل في الشرق الأوسط برمته، كانت موجودة قبل العام ٢٠٠٣ بزمان طويل؛ فالأكراد الفيلبيون (الشيعية) مثلاً طُردوا من العراق خلال الحرب الإيرانية - العراقية. من ناحية أخرى، أدت الحرب والاحتلال إلى تغييرات جديدة خطيرة في المناخ المحلي الذي كان له تأثير سلبي في الوضع الغامض الذي

(٢) Preti Taneja, «Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities since 2003», Minority Rights Group International, 11 February 2007, < <http://www.minorityrights.org/?lid=2805> > .  
(٣) «Second Rapid Assessment of Return of Iraqis from Displacement Locations in Iraq and from Neighbouring Countries», United Nations High Commissioner for Refugees (UNHCR) (February 2008), p.13, < [http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2008.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/SHIG-7CEDPJ-full\\_report.pdf/\\$File/full\\_report.pdf](http://www.reliefweb.int/rw/RWFiles2008.nsf/FilesByRWDocUnidFilename/SHIG-7CEDPJ-full_report.pdf/$File/full_report.pdf) > .

كان عليه من قبل الكثير من أقليات العراق. وقد دفعت أجواء الخوف والقلق المتواصلين وكذلك ترسخ الطائفية في العملية السياسية العراقية الناشئة إلى تهجير واسع للسكان، ونزاع طائفي، واضطراب بعيد الأثر. إذن، الوضع في البلد هش إلى درجة أنه ينذر بانتشار هذا الاضطراب على نحو تصاعدي بحيث يغمر المنطقة بأسرها.

٢٠ - العنف والتهجير ما يزالان قائمين على قدم وساق ومنظمين في العراق منذ العام ٢٠٠٣، لكنهما بلغا ذروتين جديرتين بالذكر، وذلك عندما عانت موجات كبيرة من الناس أعمال عنف وتهجير قسري مضاعفين. في العام ٢٠٠٦، بلغ العنف السنّي - الشيعي مبلغه وأجبر آلافاً من أسر الأقليات على الفرار تجنباً للتطهير الإثني الذي كان يجري لإقامة أحياء سنّية وشيعية متجانسة، ولا سيما في بغداد وحولها. وشهدت تلك الفترة إرغام معظم الأقليات في البلد على الهروب إلى الخارج أو إلى الشمال. وفي العام ٢٠٠٨، أدّت موجة ثانية من العنف ضد المسيحيين في الموصل إلى هروب آلاف العائلات المسيحية من المدينة والتوجه إلى كردستان العراق. خلال تينك الفترتين، شهد العراق حركة تهجير واسعة غيرت بشكل أساسي التركيب الديموغرافي لبعض أجزاء البلد. ومن الأهمية ملاحظة أن موجتي التهجير في العامين ٢٠٠٦ و٢٠٠٨ كانتا ببساطة قمتي مد العنف وجزره المستمرين؛ وما برح الناس يعانون القلق والعنف في الأوقات كافة.

٢١ - ولّد هروب تلك الأقليات إلى كردستان العراق، إذ تعدّز عليها الخروج من البلد، ضغطاً هائلاً على مؤسسات الحكم داخل المنطقة الكردية؛ فالحكومة هناك تبذل قصارى جهدها من أجل توفير حماية وخدمات أساسية للأعداد الغفيرة من المهجرين الذين يفرون باتجاه حدودها. من تلك الخدمات، على سبيل المثال، التعليم الأساسي، حيث وجدت مجموعات الأقليات مشقة في إيجاد مقاعد للدراسة؛ وقد أخبرنا مسؤولون أكراد أن ليس لديهم في المدارس متسع لأكثر من عشرة آلاف طالب كردي. هذا النقص في السعة ينطوي على تحد بعيد المدى يوجب تأمين خدمات أساسية للسكان المحليين، ناهيك بعشرات الآلاف من المهجرين.

٢٢ - سألنا كل مجموعة من الأقليات التقيناها خلال بحثنا عمّ إذا كانت ستبقى في العراق إذا ما وفر الدستور مواطنة متساوية لجميع العراقيين بصرف النظر عن انتمائهم الإثني أو الديني؛ فأجابت بالإجماع بأنها لا تعتقد أن الأمر ممكن في العراق. ومع أنهم يودون البقاء، فإن الوضع خطير للغاية. بالنسبة إلى كثير منها، ثمة حل واحد هو الخروج والاستقرار في بلد آخر. إلى جانب اليأس والخوف اللذين دبا في قلوب أفراد هذه الأقليات، هناك عدة مشكلات محددة يتشاطرونها أجمعين، بغض النظر عما إذا كانوا مهجرين داخلياً في العراق أو خارجياً في الأردن أو في أماكن أخرى:

- انعدام فرص التعليم الأساسي لأطفالهم؛

- انعدام فرص دخول الجامعات؛

- انعدام فرص العمل؛

- انعدام فرص الاندماج في المجتمع الأوسع؛

– مستوى عالٍ من الإحباط حيال عدم وجود اهتمام من الخارج بشأن الوضع الذي هم فيه.

## الأيزيديون

٢٣ – الأيزيديون مثال ممتاز على مجموعة محددة ذات شيء من الهموم الخاصة جداً. إنهم كلهم تقريباً يعيشون معاً في كردستان العراق وما يسمى الأراضي المتنازع فيها والمتاخمة له؛ ومع أنهم أقليات على المستوى الإقليمي أو الوطني، فإنهم أغلبية داخل قراهم هم. هذا يعني أنهم لم يُجبروا على ترك ديارهم بالنسب ذاتها التي هي لمجموعات أخرى أكثر تناثراً وانكشافاً في مختلف بقاع العراق، مثل المندائيين والمسيحيين.

٢٤ – غير أن هذا لا يعني أنهم نجوا من الاضطهاد؛ فقد ذكر لنا أنه لم يبق في الموصل أيزيدي واحد منذ العام ٢٠٠٧ بسبب العنف الذي مارسه جماعات متطرفة. وخلافاً للمسيحيين الذين يمكنهم دفع ضريبة ليبقوا في بيوتهم، فإنه ليس أمام الأيزيديين من خيار سوى اعتناق دين جديد أو الطرد أو الإعدام. وقد استهدفهم في العام ٢٠٠٧ مقاتلون يشتبه بانتمائهم إلى القاعدة، فقتلوا منهم ٢٣ شخصاً كانوا يستقلون حافلة ركاب، وفجروا قنابل في قرى فقضى المئات من سكانها نحبهم<sup>(٤)</sup>. ويعتبرهم كثير من المتطرفين عبدة للشيطان، ودعا أئمة متطرفون صراحة إلى قتلهم إذا أبوا التخلي عن دينهم. وقد حصلنا على تسجيل لصوت الإمام الملا فرزندا وهو يقول في خطبة يوم جمعة إن من واجب المسلمين الصالحين قتل جميع الأيزيديين في العراق إذا رفضوا اعتناق الإسلام. وبات المتشددون الأيزيديون هدفاً مباشراً، على الرغم من عزلتهم ومن أعدادهم الصغيرة.

٢٥ – في وسع الأيزيديين، تبعاً لمعتقداتهم، أن يمارسوا فقط طقس العماد في معبدهم القائم في لاليش؛ والمعبد هذا هو واسطة عقد ديانتهم وأساسي بالنسبة إلى طقوسهم الدينية، الأمر الذي يفسر تعلقهم الشديد بأرضهم، علماً بأن الفوضى الاجتماعية الفاشية في جميع أنحاء العراق تهدد بإضعاف هذا التعلق وبالتالي إضعاف قدرتهم على ممارسة عبادات دينهم. في قريتهم قلعة شيحان كان الأيزيديون يشكلون أغلبية السكان عادة، وهم آخذون الآن في التحول إلى أقلية فيها بسبب تدفق أعداد كبيرة من المهجرين الفارين من العنف الطائفي في أنحاء أخرى من البلد. هذا التوازن الديموغرافي يورق الأيزيديين الذين عبّروا عن قلقهم من هذا الانكشاف الجديد أمام مجموعات يُحتمل أن تكون عدائية.

٢٦ – المجتمع الأيزيدي ضعيف أيضاً بسبب توازنهم الديموغرافي الدقيق؛ فدينهم لا يبيح بتزاوج مختلط مع غير الأيزيديين؛ بل أبعد من ذلك هو أن في المعتقد الأيزيدي نظاماً مغلقاً لا يجيز الزواج بين مختلف الطبقات الاجتماعية. هذه القواعد الصارمة بشأن الزواج، مجموعة إلى واقع قلة عدد الأيزيديين، تجعل هجرة بعضهم قسراً أمراً مؤذياً جداً للتوازن الديموغرافي الهش الذي يثبت أعدادهم.

(٤) Anonymous, «Iraq Bomb Toll Reaches 344», BBC News, 17 August 2007, <[http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle\\_east/6951221.stm](http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle_east/6951221.stm)>.

٢٧ - نظراً إلى حجم الأيزيديين، الذي هو صغير أصلاً، وتمسكهم بأرضهم، وطبقاتهم المغلقة تماماً، فقد يؤدي العنف والتشتت للذان يتحملون أوزارهما إلى انقراض هذه المجموعة التي يرقى تاريخها إلى آلاف السنين. إن الأيزيديين الذين تحدثنا إليهم يريدون اعترافاً بهويتهم الثقافية الفريدة وحماية لها من جانب الحكومات الإقليمية والوطنية. ويريدون، على وجه الخصوص، توفير الحماية لقراهم ولأماكنهم الدينية في لالش. وهم لا يرغبون في الرحيل لأنهم متعلقون بأرضهم من منطلق ديني، ويرون أن الحل الأفضل هو حكومة علمانية تحمي حقوقهم على قدم المساواة مع حقوق المجموعات الأخرى.

## المندائيون

٢٨ - لدى المندائيين أيضاً هموم خاصة جداً. إنهم ليسوا محصورين في عدد قليل من القرى، بل كانوا حتى اندلاع العنف الطائفي في العام ٢٠٠٦ منتشرين في عدة مراكز حضرية في العراق، وبخاصة في بغداد. وقد جعلهم توزيعهم غير الكثيف عرضة لأذى عنف طائفي بين المجموعات الكبرى، فغادروا البلد بعشرات الألوف، ومن لم يستطع الفرار إلى الخارج توجه إلى الشمال ولجأ إلى أربيل. ويقدر عددهم في مختلف أنحاء العالم بـ ٧٠ ألفاً، عاش معظمهم في العراق قبل حرب ٢٠٠٣، ولم يبق منهم سوى أقل من ٥ آلاف<sup>(٥)</sup>.

٢٩ - المندائيون، مثلهم مثل الأيزيديين، لا يتزوجون خارج نطاقهم، وتعتبر معتقداتهم من جانب المجموعات المتطرفة التي تستهدفهم معتقدات كافرة. غير أن المندائيين ليسوا مستهدفين من طرف المتشددين وحدهم، بل تستهدفهم أيضاً عصابات إجرامية تقوم بين حين وآخر بخطف أفراد منهم وطلب فدية؛ إذ إنهم معروفون بثرائهم بسبب عمل الكثيرين منهم في تجارة الكحول والمجوهرات وغيرها من الأعمال التجارية المربحة<sup>(٦)</sup>.

٣٠ - قالت العائلات المنداية التي أجرينا مقابلات معها إنه كان لديها رغبة عارمة في البقاء في العراق لكن وضعها الأمني كان عرضة لخطر شديد. وهي لا تعتقد أن دستوراً متركزاً على مواطنة متساوية سيرى النور في يوم من الأيام أو أن حاجاتهم الأمنية يمكن تلبيتها في المدى القصير أو المدى المتوسط. إنها تريد مساعدتها على الخروج من العراق والاستقرار في بلد آمن مثل أستراليا أو الولايات المتحدة. صحيح أن دينهم يقتضي الإقامة في جوار مياه جارية وممارسة طقس العماد فيها، إلا أن موقع النهر نفسه لم يعد مهماً؛ فالأمن بالنسبة إلى المندائيين هو الهاجس الأول.

٣١ - تبين في مناقشة مع مجموعات من اللاجئين المندائيين في الأردن أن قرابة ٦٥٠ عائلة مندائية أرغمت على الهروب إلى الأردن و ٢١٠٠ عائلة أخرى إلى سورية. وبقي من العائلات التي لجأت إلى الأردن مئتا عائلة وعائلتان فقط؛ إذ غادر العدد الباقي إلى أستراليا

(٥) Angus Crawford, «Iraq's Mandaean Face Extinction», BBC News, 4 March 2007, <http://news.bbc.co.uk/2/hi/middle\_east/6412453.stm> .

Taneja, «Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities since 2003».

والولايات المتحدة. ومن العائلات التي بقيت في الأردن، تلقت ١٧٢ عائلة موافقة على انتقالها إلى بلدان أخرى، وما تزال العائلات الـ ٣٠ الأخرى تنتظر إنجاز معاملاتها للانتقال إلى الخارج.

٣٢ - من مخاوفها كجماعة دينية منغلقة احتمال تشتتها في أرجاء العالم واختفاء دينها ببساطة بمرور الزمن. وهي تعتبر التبعض خطراً على وجودها وتحاول تسهيل هجرتها كجماعة إلى بلد واحد كيلا تصبح متفرقة أكثر مما ينبغي. إنها تؤثر البقاء في العراق، لكن بالنظر إلى تعذر هذا الأمر، تحاول اللجوء كجماعة إلى مكان آمن تستطيع أن تمارس فيه طقوسها الدينية في جو من الأمان وأن تحافظ على هويتها.

## المسيحيون

٣٣ - قبل ٢٠ عاماً، كان في العراق ما يقرب من ١,٤ مليون مسيحي؛ وهناك اليوم أقل من ٧٠٠ ألف<sup>(٧)</sup>. فالمسيحيون واجهوا منذ حرب ٢٠٠٣ عنفاً متواصلاً بلغ ذروته مرتين: الأولى في العام ٢٠٠٦، عندما وصل العنف إلى أقصى ما يمكن في البلد كله؛ والثانية في العام ٢٠٠٨، عندما جرى تهجير معظمهم من الموصل إلى أنكاوة وأجزاء أخرى من كردستان العراق. على غرار المندائيين، كان المسيحيون منتشرين في العراق فوقعوا بين نيران جماعات كبرى متطرفة ومتناحرة. وكثيرون من المسيحيين، مثل الذين في الموصل، يقيمون في ما يدعى «الأراضي المتنازع عليها» وهذا الأمر أضاف إلى اضطهادهم بعداً سياسياً داخلياً. وقد تحدثوا في مقابلات عدة عن كيف هوجم المسيحيون وقتلوا وأجبروا على دفع «الجزية»، وهُددوا في بعض الحالات حتى بعد دفع الضريبة. وحاول معظمهم مغادرة البلد ولجأ من لم يقدر منهم إلى كردستان العراق.

٣٤ - ليست الهوية المسيحية متجانسة مثلما هي بعض هويات الأقليات العراقية الأخرى. فكثيرون من المسيحيين لا يعتبرون أنفسهم أتباع ديانة فقط، بل أيضاً جزءاً من إحدى الإثنيات المتميزة الأربع: الكلدانية أو الآشورية أو الأرمنية أو السريانية. الكلدانيون يتبعون الطقوس الشرقية من الكنيسة الكاثوليكية؛ والسريان يعتبرون أنفسهم أورثوذكساً شرقيين؛ والأرمن جزءاً إما من الكنيسة الرومانية الكاثوليكية وإما من الكنيسة الأورثوذكس الشرقية؛ والآشوريون جزءاً من كنيسة الشرق أو من النساطرة. كما هناك مسيحيون آخرون يعتبرون أنفسهم مسيحيين عرباً، وهم أقلية دينية لكنهم ليسوا إثنية منفصلة أو مستقلة. إن المجتمع المسيحي واحد من أكبر مجتمعات الأقليات في العراق ويصعب تحقيق معالجة جماعية لمشكلاته.

٣٥ - في ما يتعدى التعقيدات الداخلية للهوية المسيحية العراقية، ثمة مكون خارجي قوي

(٧) انظر مقدمة فيبي مار (Phebe Marr)، في: «Iraq's Refugee and IDP Crisis: Human Toll and Implications,» Middle East Institute, Washington, DC, March 2008, < <http://www.mideasti.org/files/iraqs-refugee-and-IDP-crisis.pdf> > .



في جاليات الشتات المسيحية نوات النفوذ في دول أخرى. فهذه المجموعات ساعدت في زيادة الوعي بشأن أحوال المسيحيين في العراق؛ غير أنها أضافت من ناحية أخرى طبقة دولية من التعقيد إلى المشكلات الداخلية التي يواجهها العراقيون. يُذكر في هذا الصدد بصورة خاصة الدعم الذي قدمته مجموعات أجنبية إلى مواقع هي موضع نزاع سياسي، من مثل مقترح سهل نينوى لإقامة إقليم منفصل ومستقل بذاته لتتولى الأقليات إدارته وتلبية مطالبه؛ فمثل هذا الدعم أضاف تعقيداً إلى مشهد سياسي هو متشظ بالفعل.

## التركمان

٣٦ - التركمان مجموعة إثنية متميزة؛ ف ٦٠ بالمئة منهم سنّة، وأقل من ٤٠ بالمئة بقليل شيعة والباقيون مسيحيون. وهم مثل مسيحيي الموصل يقيمون ضمن ما يسمى «الأراضي المتنازع عليها» ويتعرضون لضغوط من عدة مجموعات تحاول كسب مزايا سياسية بعضها على حساب بعض. ويقطن نحو ٨٥ بالمئة من سكانهم العراقيين المناطق المحيطة بالموصل وكركوك وأربيل وتلعفر، بينما يسكن الباقيون في بغداد وفي قرى أصغر، مثل تازة خورماتو<sup>(٨)</sup>.

٣٧ - للتركمان، كغيرهم من الأقليات الإثنية، ثقافة فريدة لم تعترف بها أنظمة الحكم السابقة. وقد رفضت حملات «التعريب» و«التصحيح» الإقرار بتميزهم.

٣٨ - في الوقت الحاضر، يجد المجتمع التركماني نفسه في وسط واحدة من أكثر مسائل العراق السياسية إثارة للنزاع: مصير كركوك الغنية بالنفط. فبعض التركمان يؤيد المطلب الكردي ويود أن يصبح جزءاً من الإقليم الكردي. ويبدى آخرون معارضة قوية لهذا الأمر خوفاً من أن تستوعبهم الهوية الكردية. وهم، لهذا السبب، يعارضون إنشاء مناطق مستقلة بذواتها ويفضلون حكومة مركزية قوية تحترم تراثهم الثقافي. لكن في تراحم الأطراف الرئيسية في هذا النقاش توخياً لأقصى منفعة يمكن أن تحققها، غالباً ما يُستغل التركمان من جانب أطراف داخلية وخارجية دون أي اعتبار لهمومهم.

## الأقليات الأخرى<sup>(٩)</sup>

٣٩ - الأقليات التي تم تناولها في الفقرات السابقة هي فقط بعض المجموعات العديدة التي تكوّن فسيفساء العراق. ومن الأقليات التي لم يؤت إلى ذكرها هي، بالتحديد،

(٨) Gilles Munier, «Les Turcomans Irakiens: Un peuple oublié ou marginalize,» Le Blog de France-Irak Actualité, 31 mai 2007, < <http://www.gmunier.blogspot.com/2007/05/turcomans-irakiens.html> > .

(٩) أجرت المجموعة الدولية لحقوق الأقليات تحليلاً مركزاً للأزمة الإنسانية التي تواجه سلسلة واسعة من مجموعات الأقليات العراقية. من يرغب في الاطلاع على مزيد من المعلومات المفصلة المتعلقة بقضايا إنسانية محددة ذات صلة بالأقليات العراقية، انظر: Taneja, «Assimilation, Exodus, Eradication: Iraq's Minority Communities since 2003».

الشبك والبهائيون والأكراد الفيلينيون والكاكائيون (الياريسان)... وكان وصولنا إلى هذه المجموعات محدوداً وبعضها لا يقيم في ما يسمّى «الأراضي المتنازع عليها». إلا أنها تشاطر مجموعات الأقليات الأخرى التي تناولناها بالبحث بعض حالات التعرض للأذى ولها نصيب مساوٍ في تطور هوية وطنية في العراق ترتكز على المواطنة على قدم المساواة لا على الطائفية.

٤٠ - إنها كسائر المجموعات مستهدفة بسبب هويتها الإثنية أو الدينية، وقد أُجبر أفرادها على ترك بيوتهم فيما تحاول مجتمعات الأغلبية إنشاء جيوب متجانسة دينياً وإثنية. الخسائر التي أنزلها العنف في هذه المجموعات مماثلة لتلك التي لحقت بالأقليات الأخرى المشمولة بهذا التقرير. ويشار إلى أن الشبك موجودون في معظمهم ضمن «الأراضي المتنازع عليها» في الموصل وسهل نينوى؛ وهم عالقون في اللعبة السياسية العنيفة القائمة بين أطراف الأغلبية طمعاً بهذه «الأراضي». وقد أذاق تنظيم القاعدة الشبك الشيعة والتركمان الشيعة في المناطق المحيطة بالموصل الكثير من المعاناة من العام ٢٠٠٦ إلى العام ٢٠٠٨. أما البهائيون، فما تزال أغلبية الحكومات في الشرق الأوسط لا تعترف بهم وليس لهم حق في التعبير عن هويتهم. كما إن الأكراد الفيلينين، الذين طُردوا خلال حملة «الأنفال»، ما يزالون يكافحون كي يعودوا إلى بيوتهم المصادرة.

٤١ - تنم جميع هذه المشكلات في جوهرها عن غياب هوية عراقية مشتركة. وثمة حاجة إلى مقارنة تشدد على مواطنة متكافئة وقائمة على احترام حقوق الإنسان لا على الانتماء الطائفي. والهوية الوطنية المتكافئة هي في نهاية المطاف الحل الوحيد، والطويل الأجل، الذي يمكنه التعرض إلى جميع المشكلات التي تثيرها أقليات العراق. لكن مما يؤسف له أن الأحزاب السياسية والدينية الرئيسية لم تعتمد هذه المقاربة، وأن طين تحديات الحكم ازداد بلة على مر الزمن.

## تحديات الحكم

٤٢ - يشوب العلاقات بين مختلف المجموعات السياسية أو الدينية قدر كبير من عدم الثقة. وبما أن المستقبل غامض إلى هذا الحد، فإن جميع المجموعات تبالغ بمطالبها محاولة ضمان تلبية الحد الأدنى من أهدافها؛ غير أن هذه المقاربة تزيد في مشكلات جميع المعنيين أكثر مما تحلها. وقد أكدت عدة لقاءات مع سياسيين المدى البعيد الذي ذهب إليه تسييس طبيعة القضايا المحيطة بالأقليات.

٤٣ - يحاول كل طرف استغلال هذه القضايا لإدانة الأطراف الأخرى. ومطالبهم السياسية المتنافسة تجعل الموقف بالنسبة إلى الأقليات أشد سوءاً لأن الكثير منها يعيش في ما يسمّى «الأراضي المتنازع عليها». إن الأقليات في العراق هي ضحية ليس فقط الطائفية والتطرف وإنما الأجندات السياسية المتزاحمة أيضاً، وما تهجيرها إلا نتيجة لها جميعاً.

٤٤ - الأطراف كلها هي أساساً في معرض رد الفعل بدلاً من الفعل، وقد كان لهذا الواقع عواقب سلبية بالغة. هناك قليل من الاعتبار للمعاناة المتنامية التي تسوم مجتمعات الأقليات هذه؛ فعوضاً عن السعي إلى تناول الأسباب الجوهرية لبؤس هذه المجتمعات، تقوم الأحزاب السياسية الرئيسية باستغلال معاناتها لتعزيز أجنداتنا السياسية الخاصة بها.

٤٥ - الأقليات بين نارين؛ فهيبتها لا يُعترف بها إلا بصورة محدودة أو مشروطة إذ يقال لها أولاً إنها في الواقع عربية، أو إنها كردية، أو إن عليها تغيير ديانتها بحسب المطالب السياسية لمجموعة الأغلبية في أي وقت معين. من جهة أخرى، يزيل تصاعد نفوذ الأحزاب السياسية الدينية من نفوس الأقليات أي أمل بأن يعترف عراق المستقبل بهوياتها ويحترمها بشكل كامل ويعاملها على قدم المساواة مع مجتمعات الأغلبية.

٤٦ - هذا الوضع في العراق يتعارض تماماً مع إعلان الأمم المتحدة العالمي لحقوق الإنسان. وهنا تبرز مادتان على وجه الخصوص:

المادة ٣: لكل فرد حق في الحياة والحرية وسلامة شخصه.

المادة ١٨: لكل فرد حق في حرية التفكير والضمير والدين.

٤٧ - علاوة على ذلك، يعدد إعلان الأمم المتحدة بشأن حقوق الشعوب الأصلية، الذي اعتمدته الجمعية العامة للأمم المتحدة في أيلول/سبتمبر ٢٠٠٧، في المادة ٨ إجراءات لحماية الثقافات المحلية:

١ - للشعوب الأصلية وأفرادها الحق في عدم التعرض للدمج القسري أو لتدمير ثقافتهم

٢ - على الدول أن تضع آليات فعالة لمنع ما يلي والانتصاف منه:

أ - أي عمل يهدف أو يؤدي إلى حرمان الشعوب الأصلية من سلامتها بوصفها شعوباً متميزة أو من قيمتها الثقافية أو هوياتها الإثنية؛

ب - أي عمل يهدف أو يؤدي إلى نزع ملكية أراضيها أو أقاليمها أو مواردها؛

ج - أي شكل من أشكال نقل السكان القسري يهدف أو يؤدي إلى انتهاك أو تقويض أي حق من حقوقهم؛

د - أي شكل من أشكال الاستيعاب أو الإدماج القسري؛

هـ - أي دعاية موجهة ضدها تهدف إلى تشجيع التمييز العرقي أو الإثني أو التحريض عليه.

٤٨ - واضح أن أياً من هذين الإعلانين لا يُحترم في العراق في الوقت الحاضر؛ فالأقليات بخاصة ما تزال عرضة للتهديد الدائم، وفي حين إن العنف المباشر قد تراجع بصورة مؤقتة، فإن الحكومة المركزية أثبتت حتى الآن أنها عاجزة عن التعامل مع الأسباب الجوهرية لهذا التمييز، الأمر يرجح استئناف العنف في المستقبل غير البعيد، لا سيما لدى تناول مسائل مثيرة

للنزاعات مثل مصير الحدود الإقليمية وعودة بعض المهجرين في المستقبل. لا حل يستطيع توفير أمن دائم إذا لم يسع جاهداً إلى وضع إجراءات لحماية حقوق الإنسان كما يعبر عنها إعلانا الأمم المتحدة المذكوران.

٤٩ - في هذا السياق، كان النقاش بشأن المادة ٥٠ من الدستور العراقي نقطة احتدام الانفعالات المتعلقة بموقع الأقليات في النظام السياسي والمجتمع العراقيين. فهذه المادة (الملغاة) نصت على حد أدنى من التمثيل للأقليات في مناصب منتخبة في مجالس المحافظات؛ وقد أزيلت من قانون انتخابات المحافظات إبان التمهيد للاستفتاء المقرر للمصادقة على القانون، وهو ما أثار ردة فعل ضخمة من الأقليات ومن مجموعات دولية. في نهاية الأمر، تدخل رئيس العراق شخصياً لضمان إعادة إدراجها في القانون. والواقع أن هذا الجدل الذي جرى وسط عنف متواصل ضد أقليات دينية وإثنية بعث بإشارة واضحة إلى تلك المجموعات التي لا تعير أحزاب الأغلبية صالحها أي اهتمام. وانطوت هذه الأزمة بشأن قانون الانتخاب على خطر دفع الأقليات إلى خارج العملية السياسية من غير أن يترك لها سوى تمثيل محدود جداً أو رمزي في حين إنها مهددة بالانقراض.

٥٠ - يتعين أن يكون الجدل المحيط بالمادة ٥٠ مؤقتاً في أحسن الأحوال. والحماية الفضلى هي مواطنة متكافئة ولاطائفية. أما التشريع الذي يعطي حصصاً لكل أقلية، فينبغي أن يخدم فقط كإجراء مؤقت إلى حين تحقيق المساواة. بكلمة أخرى، يجب أن يكون كل عراقي، بصرف النظر عن خلفيته الدينية أو الإثنية، حراً في السعي إلى أي منصب ضمن العملية السياسية وألا يكون مقيداً بمقاعد مفردة خصيصاً لمجموعات محددة.

## استنتاجات

٥١ - العراقيون جميعاً أسرى روايات متعددة ومتناقضة عن العنف ومن هم في حكم الضحية. وقد أدى الاحتلال الأمريكي وأخطاؤه إلى تدمير النسيج الاجتماعي العراقي الهش. والطبقة السياسية الجديدة في العراق ليست حتى الآن في أجواء مصالحة؛ فموقفها ما يزال انفعالياً بشكل أساسي في جو عام من عدم الثقة. هذا الجو يعقده اتجاهان ناشئان:

- التشظي المستمر، الذي لا يمكن تحمله داخل المضمار السياسي والاجتماعي، قد بلغ نقطة يستحيل فيها حتى تحديد هويات جميع الفاعلين؛

- تركيز الأحزاب الرئيسية الضيق على تثبيت قواعد سلطتها بدلاً من الاستمساك بعملية مصالحة وطنية حقيقية هي الضامن الوحيد لمستقبل العراق.

٥٢ - إذا لم يُفعل شيء، فإن خطر الممارسات المتطرفة من أحد الجوانب يمكن أن يؤدي إلى فناء بعض هذه الأقليات وإلى تدمير الإرث الثقافي الموغل في القدم في حضارة بلاد الرافدين. على الجانب الآخر، جعل ظهور أحزاب دينية، بوصفها الأطراف السياسية الرئيسية الفاعلة في العراق الجديد، الأقليات في وضع غير آمن وألقى ظلالاً من الشك على

قدرة أو على استعداد الحكومة الحالية لمعالجة أي من هذه التحديات الجديدة بمفردها.

٥٣ - لا يمكن أن يكون الحل جزئياً فحسب؛ فهو لا يقوى على السعي إلى تناول قضية الأقليات دون أن يضعها في الإطار الأوسع، أي الأزمة الوطنية العراقية، ووضع الأقليات الهش تاريخياً في العراق، والعواقب الكارثية الناجمة عن الغزو الأمريكي وما نتج منها من تدمير للنسيج الاجتماعي العراقي. وعلى الاتجاه إلى الأمام أن يأخذ في الاعتبار أيضاً الأخطار الكامنة في صلب الوضع الراهن فضلاً عن الأجندات المتضاربة لكل من الفاعلين الداخليين والفاعلين الخارجيين.

٥٤ - ربما يقدم الانتقال إلى إدارة أمريكية جديدة مستندة إلى وعد بالتغيير إمكانية تأمل رزين في السياسة الأمريكية السابقة تجاه العراق. وقد يتيح هذا التغيير في الإدارة الأمريكية فرصة ملموسة لإجراء تصحيحات ضرورية للغاية وتستطيع تناول الأزمة العراقية برمتها بصورة أكثر فعالية، بما في ذلك بذل جهد حقيقي باتجاه مصالح وطنية. بناء على ذلك، يمكن تدبر أمر قضايا الأقليات على نحو أفضل.

٥٥ - لهذه الأسباب كلها، سيكون إنشاء لجنة مراقبة دولية مستقلة خطوة مفيدة في معالجة هذه التعقيدات وفي طرح مقترحات عملية وبناءة. ذلك أن من شأن لجنة تضم فاعلين عراقيين فقط أن تكون مقيدة بالأجندات المتضاربة وبما يتخلل الجو الراهن من عدم ثقة. ولا بد أن تكون لجنة المراقبة الدولية هذه مؤلفة من شخصيات مرموقة جداً ومعروفة بمهنتها وصدقيتها بما يسهل عليها الوصول إلى صنّاع القرار الأساسيين محلياً وإقليمياً ودولياً.

٥٦ - إن التعقيدات المقرونة بالأزمة العراقية ما زالت تتضاعف بسرعة غير عادية؛ والآليات المعتمدة تثبت عجزها عن معالجة هذه الأزمة بطريقة يمكنها أن تؤدي إلى حل دائم يصحح الوضع الحالي ويكون أيضاً مقبولاً من جميع الفاعلين. ومن نافلة القول أن انقراض الأقليات العراقية لن يكون مأساة لها أو خسارة للعراق فحسب، وإنما مأساة وخسارة للبشرية جمعاء □